لماذا فشل الثوريون الاشتراكيون في تحقيق الوحدة؟

لقد فشل الاشتراكيون الثوريون في تحقيق الوحدة العربية الشاملة أو الجزئية[1]. بل في تحقيق الوحدة الوطنية في أقطارهم فما سر ذلك، إن قدمنا حسن الظن وافترضنا صدقهم في الرغبة فيها، وإخلاصهم في الدعوة إليها، وهو ما يشك ويشكك فيه كثير من العرافين؟

سر ذلك:

أن الوحدة لا تتم بين شعبين أو بلدين إلاَّ إذا توافرت جملة شروط:

١ ـ أن يكون بينهما هدف مشترك يريدان تحقيقه معاً. وهذا لا يخالف فيه أحد، ولهذا قال الثوريون: وحدة الهدف قبل وحدة الصف.

٢ ـ أن يتفق الطرفان على المنهج.. على الطريق الذي يسلكانه لتحقيق الهدف.

٣ ـ أن يسود الشعبين شعور عام قوي مشترك بوجوب الوحدة وضرورتها لكل من البلدين.

٤ ـ أن تتوافر عند كل منهما ثقة متبادلة بالطرف الآخر، ويحسن ظنه فيه.

أ ـ أما الهدف المشترك الذي أراد التقدميون أن يلتقي عليه العرب جميعاً. فهو «الاشتراكية الثورية» وهذا هدف يبعد جداً أن يتفق عليه العرب في المغرب

(١) أما «اتحاد الجمهوريات العربية» المقترح، فليس في الواقع وحدة ولا اتحاداً، إنه ـ كما قال الرئيس السادات نفسه ـ مجرد اتفاق تعاقدي حسب تفسير أساتذة القانون الدستوري، ومع هذا فلا تزال التجربة على الورق حتى كتابة هذه السطور.

والمشرق، وهو بطبيعته هدف يفرق ولا يجمع، لأنه يقوم على فلسفة الصراع، ولهذا سينقسم العرب بإزائه حتماً، وهذا ما كان.

على أن الذين اتفقوا في هذا الهدف لم يكوّنوا بينهم وحدة، كما رأينا، حتى دولتا الحزب الواحد، المتجاورتان.

الهدف الواحد المشترك حقاً هو الإسلام، الذي جمع هذه الأمة من قبل، وكانت طرائق قدداً، فجعل منها أمة واحدة، كانت خير أمة أخرجت للناس.

ب ـ على أن وحدة الهدف وحدها لا تكفي ما لم تصحبها وتتممها وحدة أخرى هي وحدة المنهج، ووحدة الطريق.

قد يتفق فريق من الناس على غاية واحدة، ولكن يتخذون للوصول إليها مناهج عدة، وسبلاً شتى.

ولهذا نجد الاشتراكيين مختلفين في مناهجهم وطرائقهم، ما بين متخذ طريق الروس، وبين متبع سبيل الصين، وبين مقتف أثر يوغوسلافيا، ومن ناهج نهج كاسترو. وكذلك يختلفون في سياستهم الخارجية ما بين موال لبكين أو دائر في فلك موسكو، وآخر لا يفرط في حبال الغرب، وكل حزب بما لديهم فرحون.

أما من اتخذوا الطريق الإسلامي، والمنهج المحمدي، فهم أولى الناس أن يلتقوا في بدايته وفي وسطه وفي نهايته، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝ ١٣٥١ن/١ن٢١﴾[1].

حتى من انحرف عن هذا الصراط، نستطيع أن نحاكمه إلى مبادئه، وأن نرده إلى أصوله من الكتاب والسنّة ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[2].

ج ـ أما الشعور العام القويّ بضرورة الوحدة وأهميتها فهو أمر لازم، فقد تكون مقومات الوحدة وأسبابها قائمة، ولكن لا يشعر جمهور الناس بضرورتها

---

(١) الأنعام، آية ١٥٣.

(٢) النساء، آية ٥٩.

obeikandi.com

وفائدتها. بل قد يؤثرون عليها حياة الانفصال أو العزلة. وذلك إذا توجس الناس من وراء الوحدة شراً، كأن يتحقق بوساطتها انتصار لحزب مبغوض، أو زعيم مكروه، أو نظام لا يواليه الشعب إلاَّ كرهاً، فالوحدة عندئذٍ شر يخافه الناس، لا خير يرجونه ويحرصون عليه، ويسعون إليه. وهذا هو ما يجعل الشعوب مجفلة من الوحدة بين الثوريين بعضهم وبعض، لأن اتحادهم لا يكون إلاَّ عليها، إذ هو للأسف اتحاد حكام وأنظمة تريد أن يسند بعضها بعضاً ضد أي حركة تمرد أو مقاومة من الداخل. وليس هو اتحاد شعوب وأوطان في سبيل الهدف الواحد والمصير الواحد.

د ـ ولا يكفي هذا كله، حتى يكون هناك قدر كافٍ من الثقة المتبادلة بين الذين ينشدون الوحدة فيما بينهم. إذ لا يتصور أن تقوم وحدة بين أناس يتهم بعضهم بعضاً بالخيانة أو العمالة للإمبريالية الغربية من طرف، أو للإمبريالية الشيوعية الشرقية من طرف آخر... والعودة إلى الإسلام الحقيقي المستقل المتميز، هي التي توفر جو الثقة، وتزرع بين جمع المؤمنين به التفاهم وحسن الظن.

فأصبح كل شعب مني بحكم هؤلاء التقدميين مقسماً ـ حسب تصنيفهم الحتمي ـ إلى رجعيين وثوريين، ويمينيين ويساريين ومحافظين وتحرريين.

وليس عجيباً أن تفشل الوحدة العربية على أيدي هؤلاء الثوريين الاشتراكيين اليساريين، فهذا هو المنطقي والطبيعي، ولو نجحت لكان هذا هو العجب العجاب.

ذلك أن هؤلاء قد حطموا «الوحدة الوطنية» بين أبناء الشعوب التي يحكمونها، نتيجة حتمية للإرهاب والاضطهاد الذي يمارسونه ضد المعارضين لحكمهم وما أكثرهم! ونتيجة لما أثاروه من أحقاد بين فئات الشعب، وفقاً لما تعلموه من فلسفة «الصراع الطبقي» الماركسية المخربة. باعتبارها جزءاً من دينه.

وأصبح مجتمعنا الذي توارث الأخاء والمحبة ـ باعتبارهما جزءاً من دينه ـ يشك بعضه في بعض، ويخاف بعضه من بعض، ويتربص فريق منه بآخر، على أيدي الجلادين والممزقين من فلاسفة «الصراع» و «الحرب النفسية»!

فإذا كان هؤلاء قد حطموا وحدة داخلية كانت قائمة بالفعل في أوطانهم، فكيف يرجى أن تتحقق على أيديهم وحدة عربية شاملة أو جزئية، وفاقد الشيء لا يعطيه؟!

العالم يتقارب والعرب يتباعدون:

والعجيب أن يحدث هذا التمزق والانقسام وتقاذف التهم بين العرب بعضهم وبعض، إلى حد الاغتيال في السر[١]، والاقتتال في العلانية[٢]، وقطع العلاقات السياسية، والحكم بالإعدام على المعارضين[٣]، على حين نجد الكتل المتعارضة في العالم، تحاول أن تقيم فيما بينها نوعاً من «التقارب» أو «التعايش» متطورة من موقف التصلّب والتشدّد، إلى موقف التسامح والتنازل.

رأينا هذا التقارب يتم على الصعيد الديني، وعلى الصعيد السياسي معاً.

فعلى الصعيد الديني، رأينا التقارب الذي تم بين المسيحية واليهودية، برغم النزاع التاريخي الأصيل الطويل بينهما، وهو نزاع يضرب بجذوره إلى عشرين قرناً في التاريخ، أي أن عمره هو عمر المسيحية ذاتها. وهو نزاع جوهري نزاع بين من يقولون: المسيح ابن الله، ومن يقولون: المسيح ابن «حرام».

ومع هذا كله حدث التقارب، وأصدر الفاتيكان وثيقته الشهيرة بتبرئة اليهود من دم المسيح!

ونسي اليهود ـ أو زعموا أنهم نسوا ـ المظالم الفادحة التي أنزلها بهم المسيحيون خلال القرون الطويلة.

---

(١) أقرب أمثلته اغتيال الفريق حردان عبد الغفار التكريتي نائب رئيس الوزراء، ووزير الدفاع في حكم العراق البعثي، وقد اغتيل بالكويت.

(٢) أبرز أمثلته الاقتتال بين الجيش الأردني والفدائيين، وإسرائيل على بعد خطوات تدنس أعز المقدسات!

(٣) أقرب أمثلته حكم البعث السوري على ميشيل عفلق وأمين الحافظ بالإعدام، وقد خفف بعد إلى ١٥ سنة.

وعلى الصعيد السياسي رأينا التقارب الذي تم بين المعسكر الشرقي وعلى رأسه الاتحاد السوفياتي. وبين المعسكر الغربي ـ وعلى رأسه الولايات المتحدة.

رأينا روسيا الماركسية اللينينية تتطور من فكرة «الثورة العالمية» إلى الحرب الباردة، ومن الحرب الباردة إلى التنادي بفكرة «التعايش السلمي» التي بدت واضحة في عهد الرئيسين خروتشوف وكندي، ثم إلى التفاهم والتعاون والاتصال المباشر في عهد الزعماء الثلاثة (بودجورني وبريجنيف وكوسيجين) وعهد جونسون فنيكسون.

وأكثر من ذلك ما بدأت بوادره هذه الأيام من «تقارب أمريكي صيني» ومن عزم الرئيس الأمريكي على زيارة بكين، وهو أمر كان بعيد الاحتمال في نظر الكثيرين، ولكنه يوشك أن يقع، ويقلب الموازين الدولية رأساً على عقب!

وها هي انجلترا التي ظلت دائماً جزيرة في مواجهة القارة الأوروبية، توشك أن تلحق بالقارة نفسها، بوصفها جزءاً لا يتجزأ منها، وتغدو عضواً في السوق الأوروبية المشتركة.

كل هذا التقارب والتفاهم والتعاون يحدث في العالم كله من شرقه إلى غربه، في مجالات الدين والسياسة والاقتصاد، والعرب وحدهم يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً، بل يقاتل بعضهم بعضاً، ببركات «الأيديولوجيات» المستوردة، والأفكار الدخيلة، التي جعلت الشعب العربي الواحد، فريقين متصارعين ـ حتماً ـ وفقاً للفكر الطبقي الذي تتبناه، وحمل بعضهم فكرة ضرورة قيام حرب عنيفة بين العربين: عرب اليمين وعرب اليسار أو على الأصح: بينهم ـ معشر الثوريين، وبين سائر العرب، وهي حرب «لا تداني قسوتها قسوة الحروب الخارجية مع الأعداء الألداء»[1] بل اعتبر كل عربي ليس بثوري عدواً سافراً.

---

(١) في سبيل البعث ص ١٦٠.